إلى المرجعية الشيعية في العراق: 14 سؤالاً فيها عتاب

د. عبد الكريم الزبيدي*

■ أيّتُها المرجعية الشيعية في العراق: إنّ شيعتكم في العراق تدور في رؤوسهم الأسئلة التالية:

1ـ إنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يؤكّدون على البراءة من أعداء الله تعالى. فلماذا تصمت المرجعية الشيعية الحالية، ولا تعلن البراءة من عدو الله ورسوله وعدو المسلمين الذي يحتل العراق؟! ولماذا لا تعلن المرجعية الشيعية الحالية البراءة مما يفعله المحتل وعصاباته بأهل العراق المسلمين من السنّة والشيعة؟!

2ـ إنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يؤكّدون على إبقاء جذوة الرفض للظلم والواقع المنحرف عن الإسلام، متّقدةً في ضمائر أتباعهم، فلماذا لا تقوم المرجعية الشيعية الحالية بهذا الدور الذي قام به أئمة أهل البيت (ع) ؟!.. ولماذا لا تدعو المرجعية الشيعية الحالية أتباع أهل البيت (ع) إلى رفض الواقع الذي أوجده المحتل الكافر، والخروج عليه بالسيف؟!.. ولماذا تثبّطُ بصمتها الملايين من أتباع أهل البيت الذين ينتظرون كلمتها، وتُطفئ في ضمائرهم جذوة الرفض التي حرص الأئمة (ع) على إبقائها متّقِدةً في ضمائر أتباعهم؟! أرضيت المرجعية بالحياة الدنيا من الآخرة ؟!

3ـ إنّ أئمة أهل البيت (ع) كانوا يحرصون على الحفاظ على وحدة المسلمين، وتقديم المصلحة العليا للإسلام والمسلمين، فلماذا لا تقول المرجعية الشيعية الحالية كلمتها فيما يحدث الآن في العراق من شق عصا المسلمين وتمزيقهم وتفريقهم وتقطيعهم في أقاليم تجري بينها أنهار الدم، وتتأجّج على حدودها نيران الأحقاد والثارات؟! هل معنى سكوتها أنها استسلمتْ لما يريده المحتل عدو الله ورسوله أن يحدث في العراق؟ أم أنها رضيت بتمزيق المسلمين في العراق بمشروع الأقاليم؟!

4ـ إنّ أئمة أهل البيت (ع) كانوا يقومون بواجب الدفاع عن الإسلام، والتضحية من أجله حين يتعرّض إلى خطر المصادرة أو التشويه، فلماذا لم تقم المرجعية الشيعية الحالية بهذا الواجب وتقود أتباع أهل البيت ضدّ المحتل الكافر الذي دنّس مقدّسات المسلمين وهدّم أضرحة أهل البيت (ع)، ومزّق المصاحف، وهو قادمٌ إلى العراق من أجل حلّ عرى الإسلام، وإفساد أخلاق شبابه وبناته ونسائه؟!

5ـ إنّ أئمة أهل البيت (ع) كانوا يقومون بإغاثة المظلومين والملهوفين، والانتصار لهم، وإنكار الظلم والقهر والاضطهاد بكل أشكالها، فلماذا المرجعية الشيعية الحالية مستكينة؟! أمَا تسمع صرخات الآلاف بل الملايين من العراقيين المظلومين، وهم يستغيثون مما يفعله بهم المحتل الكافر وأعوانه، ولا مغيث؟! أمَا تسمع أنين الآلاف، بل الملايين من العراقيين الملهوفين الخائفين، وهم يستنجدون، ولا منجد؟!

6ـ أليس الإمام الحسين (عليه السلام) هو المثل الأعلى في عدم السكوت على الظلم والطغيان، وعدم القبول أو الإقرار بالأمر الواقع الذي يريد الظالمون فرضه بالقوة على المجتمع؟ وهو المثل الأعلى في استرخاص الدماء والأرواح والأموال والأولاد والنساء من أجل مصلحة الإسلام؟ وهذا ما سمعناه مراراً على لسان المراجع والعلماء في حلقات الدرس والمجالس، فلماذا لا تسير المرجعية الحالية على خطّ الإمام الحسين في مواجهة الظلم والطغيان الذي يعصف بالعراق وأهله؟! ولماذا قبلت المرجعية الحالية بالأمر الواقع الذي يفرضه المحتل وعصاباته في العراق؟! ولماذا لا تقتدي المرجعية الحالية بالإمام الحسين فتخرج عن صمتها، وتكون على رأس أتباعها على خُطى الحسين من أجل الدفاع عن أرواح آلاف الرجال والنساء والأولاد الذين تُسفك دماؤهم، وتُزْهَق أرواحهم كلّ يوم ظلماً بيد المحتل وعصاباته؟!، ومن أجل النساء اللاتي تُنتهك أعراضهنّ كلّ يوم في سجون المحتل أو على مرأى من الناس؟!، ومن أجل أموال المستضعفين وممتلكاتهم التي تُسلَبُ أو تُدمَّر أو تُحرق بيد المحتل وعصاباته؟!

7ـ لماذا تستدل المرجعية الشيعية على كون المراجع وكلاء أئمة أهل البيت ويجب الرجوع إليهم، برواية الكافي عن الإمام الصادق (ع)، عن رسول الله (ص) أنه قال: «الفقهاء أمناء الرسل»، ولا تقوم المرجعية الحالية بوظيفة الرسل، ووظيفة أئمة أهل البيت (ع)؟!. ولماذا تستدل المرجعية على وجوب الانقياد للمراجع بمقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق (ع) وتستدل على وجوب تقليد المراجع من قِبل العامّة برواية الكافي عن الإمام صاحب الزمان (ع) التي قال فيها: «وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجّة الله»، ولا تقوم المرجعية الحالية بواجبها تجاه أتباع أهل البيت الذين تُسفك دماؤهم، وتُزهق نفوسهم، وتُنتهك أعراضهم، وتُنهب أموالهم وثرواتهم، وتُخرّب بيوتهم وممتلكاتهم، ويُخرّب اقتصادهم، على أيدي المحتل الكافر وعصاباته، سواء في العراق أم في لبنان؟ ألم يقم أئمة أهل البيت (ع) بوظيفتهم تجاه أتباعهم، وتجاه عامة المسلمين، كما قال أمير المؤمنين علي (ع):

«أمَا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أنْ لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيتُ حبلها على غاربها، وسقيتُ آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».

8ـ لماذا أساءت المرجعية الشيعية الحالية إلى التشيّع عموماً، وإلى شيعة العراق خصوصاً بصمتها على عدو الله ورسوله وعدو المسلمين الذي جاء من آخر الدنيا ليحتل العراق، وليذبّح أبناءه، ويستحيي نساءه؟ ألم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد نجحت في إظهار شيعة العراق بمظهر الراضي بالقوات المحتلة، أو المهادن لها، أو الساكت عليها، وإظهارهم بمظهر المستفيد من القوات المحتلة في الحصول على حقوقهم التي صادرها أهل السنة أيام حكم صدام، وإظهار مراجعهم بمظهر الراضي بما تفعله جيوش المحتل بأبناء المسلمين من الشيعة والسنة، من قتل وسفك دماء وتدمير ممتلكات وهتك أعراض وحبس وتعذيب.. لأنّ هؤلاء المراجع سكتوا ولم يهبوا لنجدة المظلومين، ولم يرفعوا أصواتهم عالية صريحة ضدّ المحتل وعصاباته وما يفعلونه بالمسلمين في العراق.

9ـ لماذا تسبّبت المرجعية الشيعية الحالية في مصادرة كل الإنجازات التي حققها الشيعة، والفكر الشيعي في الدفاع عن الإسلام، وإنكار الظلم والطغيان، ورفض الواقع المنحرف عن الإسلام، والثورة عليه، وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين.. على مرّ العصور؟!

10ـ إنّ المرحلة الحالية ابتداء من هذا الشهر هي مرحلة انقلاب أمريكا المحتلّة على الشيعة في العراق، وستشهد هذه المرحلة تقارباً بين أمريكا والجماعات السنية، وستشهد هذه المرحلة ولادة إقليم سنّي قويّ متحالف مع إقليم كردستان، ومتقاسم معه الثروات النفطية، وسيُحكَم العراق من قِبل هذا التحالف، ويُهمّش الشيعة، سواء في الحكم أم داخل أقاليمهم التي ستكون مركزاً للقواعد الأمريكية، استعداداً للجولة القادمة التي تُعِدُّ لها أميركا مع إيران. فلماذا أسهمت المرجعية الشيعية الحالية بما سيؤول إليه حال الشيعة في العراق ؟

11ـ أليس المراجع العظام هم (حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها) كما جاء في رواية الكافي عن أبي الحسن موسى بن جعفر (ع): «.. لأنّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها»؟ وإذا كانوا حصون الإسلام، أليس من واجبهم الدفاع عن بيضة الإسلام، والحفاظ عليه، والدفاع عن كتاب الله ومقدسات المسلمين ومساجد الله؟ وإذا لم يتدخلوا فيما يحدث للإسلام والمسلمين، واعتزلوا الناس وأمورهم، وقبع كلُّ واحد منهم في زاوية من داره دون أن يراه الناس أو يسمعوا صوته، فهل يكون المرجع في هذه الحالة حصناً للإسلام؟!

أليس معنى كونهم حصوناً للإسلام هو الدفاع عن بيضة الإسلام، والدفاع عن ثغور المسلمين، والحفاظ على سلامة أرضهم واستقلالهم؟! وهو من أهم الواجبات الملقاة على عاتقهم، كما قام بذلك قبلهم رسول الله (ص) والأئمة من أهل بيته (ع)، وهو المعنى الظاهر من قول رسول الله (ص): «الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه» مَنْ لا يحضره الفقيه: 4/433، الحديث 5719). أليس المرجع هو حجة الإسلام والمسلمين؟ فماذا يعني ذلك؟ هل يعني مجرّد بيان المسائل الشرعية في العبادات والمعاملات للمسلمين؟ وماذا نفهم من قول رسول الله (ص) في عليّ (ع): «إني جعلتُ علياً حجةً عليكم»؟ هل نفهم منه أنه يريد: أني جعلتُ علياً من بعدي يبيّن لكم المسائل الشرعية فقط؟ أم أنه يريد أن يجعل علياً مرجعاً للمسلمين يفزعون إليه فيما يصيبهم أو يصيب الإسلام من خطر، إضافة إلى وظيفته في بيان المسائل الشرعية؟!

12ـ أليس المراجع العظام مسؤولين ومكلفين في عصر الغَيْبة بصيانة عزّة المؤمنين وكرامتهم، والحفاظ عليها من أنْ تُكْسَر أو تُهان أو يُداسَ عليها من قبل الكافرين؟! عملاً بقوله تعالى: «ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين» (المنافقون : الآية (8)، وقوله تعالى: «ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النساء : الآية 141، وقول رسول الله (ص): «المسلمون يدٌ على مَنْ سواهم: (كنز العمال 1/98، الحديث 441). ألم يتعرّض المؤمنون في العراق على يد القوات الأمريكية وحلفائها إلى الإهانة والذلّ والاستخفاف، بضربهم، وطرحهم أرضاً ثم دوسهم بأحذية الجُند، ووضع لباس الذلّة على رؤوسهم، وغير ذلك من أنواع الذلّ والإهانة؟! ألم يتعرّض المؤمنون في سجون الاحتلال إلى أنواع التعذيب التي لا تُبقي للإنسان كرامة ولا عزّة، إلى حدّ اغتصابهم جنسياً، وتعريتهم كلياً وتركهم عُراةً يلعبُ بأعضائهم غلمان الجيش الأمريكي ونساؤهم في السجون والمعتقلات؟! كلُّ ذلك يحدث أمام سمع ومرأى الناس، وليس مستوراً عنهم، ونقلته وسائل الإعلام المختلفة، فلماذا لم تقم المرجعية الحالية بواجبها في صيانة كرامة المؤمنين وعزتهم؟! ألم تر المرجعية الحالية وتسمع بكلّ ذلك؟!، أم كانت في عُزلة مما يحدث بالمؤمنين؟!

13ـ ألم تقرأ المرجعية الحالية خطاب الإمام الحسين (ع) في منَى إلى علماء المسلمين، في السنة التي خرج فيها ثائراً على ظلم بني أمية، إذْ قال للعلماء: «ثمَّ أنتم ـ أيتها العصابة ـ عصابةٌ بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة معروفة، وبالله في أنفس الناس مهابة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم مَنْ لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلابها، وتمشون في الطريق بهيبة الملوك وكرامة الأكابر. أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يُرجى عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون، فاستخففتم بحق الأمة.. أنتم تتمنّون على الله جنته ومجاورة رسله وأماناً من عذابه. لقد خشيتُ عليكم أيها المتمنّون على الله أنْ تحلَّ بكم نقمة من نقماته، لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فُضِّلتُم بها.. وقد ترونَ عهود الله منقوضة فلا تفزعون !!، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون!!، وذمّة رسول الله (ص) محقورة، والعُمْي والبُكْم والزُّمنى في المدائن مهملة!! لا ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون.. وبالادّهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون!! كل ذلك مما أمركم الله به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون!! وأنتم أعظم الناس مصيبة، لما غلبتم عليه من منازل العلماء لو كنتم تسمعون!! ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه. فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سُلِبْتُم ذلك إلاّ بتفرقكم عن الحق.. ولو صبرتم على الأذى وتحملتم المؤونة في ذات الله كانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنّكم مكّنتم الظلمة من منزلتكم وأسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات. سلّطهم على ذلك فراركم من الموت وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء بأيديهم، فمن بين مستعبد مقهور، وبين مستضعف على معيشته مغلوب».

أليست المرجعية الحالية ترى عهود الله منقوضة، فلا تفزع لها؟! أليست المرجعية الحالية تفزع إذا مُسَّتْ ذمّةٌ أحدهم، أو ذمّة أحد أولاده وأهله والمقرّبين إليه؟! أليست المرجعية الحالية ترى ذمة رسول الله محقورة على يد أعداء الله، مرّة في الدنمارك، وأخرى في فرنسا، وثالثة على يد بابا الفاتيكان، ولم تفزع لذلك؟! أليست المرجعية الحالية ترى العُمْي والبُكْم والزُّمْنى والمستضعفين في أنحاء العراق مهملة؟! أليست المرجعية الحالية تُداهن حكام الجور والظلم، حتى بات هذا الأمر واضحاً للعيان؟!

14ـ ألم يقم مراجع الشيعة السابقون (رضوان الله عليهم) بواجبهم، باعتبارهم أمناء الرسل، وحصون الإسلام والأمة الإسلامية، ومراجع الأمة؟ فحين هاجم الروس إيران في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، خرج المراجع في إيران ـ وكان أبرزهم آنذاك الشيخ أحمد النراقي (قدّ) صاحب المستند ـ مع المجاهدين، وقد دعمهم المرحوم السيد محمد المجاهد ابن السيد صاحب الرياض (قدّ) فشدّ الرحال من كربلاء بمَن معه، والتحق بهم، فأبلوا بلاءً حسناً.

وحينما غزت الجيوش البريطانية العراق خرج المراجع في العراق، واندفعوا للقيام بواجبهم في حفظ بيضة الإسلام، والدفاع عنه، فخرجوا للجهاد في جبهتين: أ ـ جبهة الشعيبة، ب ـ جبهة الكوت. وكان منهم السيد محمد سعيد الحبوبي، ومعه السيد محسن الحكيم الذي كان شاباً في ذلك الوقت، وشيخ الشريعة الأصفهاني، والسيد علي الداماد، والسيد أبو القاسم الكاشاني، والسيد مهدي الحيدري، والشيخ مهدي الخالصي.. وجماعة كثيرون (قدس الله أرواحهم الزكية). وقد أرسل السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والشيخ محمد تقي الشيرازي (قدّ) ولديهما السيد محمد، والشيخ محمد رضا، دعماً لهم.

ولمّا احتلّت بريطانيا العراق طالبها المراجع بالانسحاب، ولما تجاهلت ذلك فجّروا ضدّها الثورة المعروفة بثورة العشرين، بقيادة المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي (قدّ) الذي لم يلبث طويلاً حتى تُوفي، فخلفه في قيادتها المرحوم شيخ الشريعة الأصفهاني (قدّ).

ولمّا احتلّت فرنسا لبنان خرج آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين (قدّ) وطالب الفرنسيين بالانسحاب من لبنان وقد أدّى ذلك إلى تعرّضه لانتقام الفرنسيين، فحكموا عليه بالإعدام، وهاجموا بيته، وأحرقوا مكتبته.

فأين المرجعية الحالية الآن من واجبها حين غزت الجيوش الأمريكية العراق؟! وأين هي الآن من واجبها حين احتلت الولايات المتحدة الأمريكية العراق، وبسطت نفوذها على أرضه؟! ولماذا لم تتصدَّ المرجعية الحالية للغازي الكافر وهو يجتاح العراق؟! ولماذا لم تطالبه بالانسحاب حين احتلّ العراق وبسط سلطانه الكافر على كلّ أرضه؟! هل تعتبر المرجعية الحالية المحتلَّ الكافر ولياً ونصيراً ومحرراً؟! هل ترى المرجعية الحالية أنّ المحتل الكافر لا يُخْشَى منه على بيضة الإسلام والمسلمين؟!

أيّتُها المرجعية الشيعية في العراق.. تلك أسئلة خرجت من الضمائر وصارت على ألسنة مقلّديكم، وعلى ألسنة الشيعة عموماً، لأنهم يرون بكلّ وضوح أنّ المرجعية الحالية في العراق صمتت واستكانت وهي ترى المحتل الكافر ينتهك مقدّسات المسلمين، يمزق المصاحف ويخرّب المساجد والحسينيات ويدنّسها، ويدمّر أضرحة أهل البيت (ع) وأضرحة الصالحين من المسلمين، ويرون المرجعية الحالية صمتت واستكانت وهي ترى المحتل الكافر وعصاباته يسفكون دماء المسلمين في العراق، ويزهقون نفوسهم وينتهكون أعراضهم، وينهبون أموالهم وثرواتهم، ويُدَمّرون بيوتهم وممتلكاتهم، ويرون المرجعية الحالية صمتت واستكانت وهي ترى المحتل الكافر يعتقل آلاف المسلمين وينتهك كرامتهم بالتعذيب المذل المهين الذي لا يُبقي للإنسان كرامة ولا عزّة، ويرون المرجعية الحالية صمتت واستكانت وهي ترى المحتل الكافر وعصابته يشعلون نار الفتنة بين المسلمين في العراق، ويرون المرجعية الحالية قد أقرّت بصمتها مشروع تمزيق المسلمين في العراق إلى كيانات متصارعة، يغذي الصراع بينها أحقادا وثارات لا تنتهي، ويرون المرجعية الحالية صمتت واستكانت وهي ترى المحتل الكافر يرفض الانسحاب من العراق، ويقيم قواعد دائمة له في العراق، فيصبح بذلك خطراً على مصلحة الإسلام والمسلمين جميعاً.

أيّتُها المرجعية الشيعية في العراق: أفيقوا، واخرجوا من حالتكم هذه، وتحركّوا، واشتروا بأنفسكم رضوان الله، قبل أن يتمرّد عليكم أتباع أهل البيت، وفيكسروا حواجز التقديس والاحترام لكم، ويحطّموا الأسوار التي تمنعهم منكم، واعلموا أنّ «الله اشترى من المؤمنين أنفسهم»، واعلموا أنّ أمامكم طريقين لا ثالث لهما، إمّا أنْ تبقوا على موقفكم وصمتكم الحالي، وبذلك تستحقّون ما تستحقّونه من الله والتاريخ والمسلمين، وسيتفرّق عنكم أتباع أهل البيت في انتظار ظهور منقذ البشرية (ع). وإما أن تكونوا أمناء الرسل ووكلاء الأئمة (ع) وحصوناً للإسلام والمسلمين حقاً فتقومون بواجبكم، وستجدون الله وجميع المسلمين معكم، وسيلتفّ حولكم أتباع أهل البيت، وستقودونهم لنصرة منقذ البشرية (ع).

* كاتب من العراق

الأحرار يصنعون الخبز يا عباس

عبد الستار قاسم*

■ قال السيد محمود عباس في كلمته التي ألقاها بتاريخ 17تشرين الأول (اكتوبر) 2006 حول الأوضاع الفلسطينية بأن الخبز أهم من الديمقراطية. هذا قول خطير جدا لما ينطوي عليه من استبعاد للذات وفصل الإنسان عن نفسه ونكران قدراته الذاتية وانسحاق شخصيته. إنه قول يعود إلى القرون الوسطى عندما كانت لقمة الخبز وسيلة الأسياد الأولى في سوق العبيد كقطيع من الماشية الدهماء التي لا تعرف سوى طعم البرسيم. إنه قول مرعب يعود بالإنسان الفلسطيني مئات السنين إلى الخلف عندما كان يظن المرء أن التمرد على تحكم الأمراء بالأرزاق عبارة عن تمرد على الآلهة، وسيكون الجزاء آلاما في الدنيا وجهنّما مستعرة في الآخرة.

سأقبل هنا مزاوجة الديمقراطية بالحرية على الرغم من اختلافهما، وقبولي هذا مرتبط بالانطباع الشعبي أن الديمقراطية هي الحرية. وما يعنيه السيد عباس هنا هو خيار الشعب الذي تم التعبير عنه من خلال انتخابات أدت إلى فوز حماس بأغلبية مقاعد المجلس التشريعي. إنه يريد أن يقول إنه إذا تطلبت مسألة الحصول على الخبز من الدول التي تفرض على الشعب الفلسطيني حصارا ماليا تجاوز الديمقراطية وقرار الشعب الفلسطيني فإنه سيفعل ذلك. أي أنه مستعد للتضحية بالإرادة السياسية الحرة للشعب الفلسطيني من أجل لقمة الخبز التي يقدمها الآخرون.

ظني أن السيد محمود عباس يحمل شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية، وبالتالي لا بد أنه يعي بأن كيان الإنسان الحر والمستقل يستحوذ على اهتمام فلاسفة السياسة على اعتبار أن لا إبداع بدون حرية، وأن الحر وحده هو الذي يستطيع التعامل مع مختلف الظروف والأحوال من أجل أن يبقى سيد نفسه وغير مستعبد بأي طريقة كانت من قبل أي شخص أو ظرف أو متاع. انهمك فلاسفة الإنسان والسياسية عبر التاريخ وحتى الآن في البحث عن حرية الإنسان لأنها هي أرضية تقدمه وعطائه وقدرته على المشاركة الحرة في أعمال المجتمع وصناعة الحضارة. وقد انهمك هؤلاء بمحاربة كل أنواع الاستغلال التي تسخّر الإنسان وتلغيه، وتجعله مجرد أداة بيد الآخرين الذين يمنون عليه في عبوديته.

إذا كان أبو مازن لا يدرك هذا فهو بالتأكيد لا يحمل شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية، أو أنه يحملها شكلا بدون جوهر، أو ربما قام أحدهم بكتابة رسالة الدكتوراة بالنيابة عنه، ولم يقم هو إلا بمراسيم الحصول على الشهادة. إذا كنت أنا مخطئا في هذا، فلا بد أنني لم أستمع إلى السيد عباس، أو خانتني قدرتي على فهم منطقه الخطابي.

يا سيد أبو مازن، يا رئيس دولة فلسطين: كلامك هذا يحفر قبرا جماعيا ليهلك فيه جمهور الفلسطينيين فيصبحوا أثرا بعد عين. أنت تدعو إلى العبودية، إلى استعباد الشعب الفلسطيني، وتدعو إلى نزع الإنسان عن نفسه وتمزيق وهدر كرامته مقابل رغيف الخبز، أنت لا تعتبر الفلسطيني أكثر قيمة من رغيف الخبز، بل أنت تعتبره أقل من الرغيف لأن الرغيف، حسب فلسفتك، هو سر العيش. أنت ترى في الفلسطيني كائنا يبحث عن عيش لا عن حياة. ألا ترى أن الإنسان عبد لمن يطعمه، وأن العبد مجرد بهيمي لا حقوق له أكثر من نعمة يقدمها له سيده صاحب الفرن؟

هل تشعر بالسعادة يا سيد أبو مازن عندما تقول انك لا تعمل خيرا مع المحتاج عندما تقدم له الخبز أو السمك، وإنما تصنع معه خيرا عندما تعلمه صيد السمك؟ نحن نتعلم يا حضرة السيد أبو مازن ونقرأ الكتب من أجل أن نرتقي لا من أجل أن نحفظ عبارات لا نطبقها على أرض الواقع. لو كنت حريصا على هذا الشعب لنزعت لقمة خبزه منذ أن استلمت منصبك من أيدي الأعداء. أبله هو ذلك الذي يعتمد في لقمة خبزه على عدوه، وإذا أمعن في ذلك فإنه متآمر على نفسه وعلى كل الذين يعيلهم. الأمم العظيمة تبحث دائما عن أسباب الاعتماد على الذات، ولا تبحث في جيب إسرائيل وأمريكا من أجل إطعام الأطفال حليب اللئام. لو كنت قائدا حقا، ولو كنت دكتورا في العلوم السياسية، ولو كنت تعلم النزر لما قبلت أصلا أن تبقي لقمة خبزنا بيد أعدائنا. أنت وغيرك تعلمون أن لقمة الخبز الآتية من الغرب لها ثمن، وثمنها الحقوق والكرامة والاستقلال، وأنت تعلم أن لقمة الخبز التي يعتصرها عرق الجبين هي التي تعني الكبرياء والكرامة والتحرير. الأذلاء يا حضرة الرئيس لا يقوون على التحرير، ولن تكون لهم دولة وعاصمتها القدس الشريف.

الرئيس يدعو أصحاب الخبرة والمعرفة والعلم في كل الأحوال للتداول، فما بالك عندما تحل المحن وتدلهم الخطوب؟ كان من الأجدى أن تدعو علماء فلسطين للتداول في كيفية الاعتماد على الذات، وعلى الأصدقاء وقت الضرورة الذين يقدمون بدون شروط. كان الأجدى أن نطور نظاما اقتصاديا خاصا بنا لا يربطنا بأهل الغرب ولا بالنظام المالي الأمريكي. كان الأجدى ان تقول لشعب فلسطين ان الأموال التي تأتيهم من الغرب هي ثمن حقوقهم، وأن لا حق لهم سوى طعام دنس يملأ أمعدتهم، وإذا أرادوا لهذا الدنس أن يبقى متدفقا في أمعائهم فما عليهم إلا تقديم السمع والطاعة للرباعية والثلاثية والثنائية وكل البغاة الشياطين.

لا بديل عن الحرية يا سيادة الرئيس لأن الأحرار يصنعون الخبز، ومدّ اليد للآخرين هو صناعة العبيد. لا تكن عبدا يا رئيس فلسطين، ولا تجر الناس إلى العبودية. العبيد لا ذمة لهم ولا ضمير، وهم يسرقون طعام وأرزاق إخوانهم في العبودية، أما الأحرار فلا ينامون وإخوانهم جوعى. الأحرار يزرعون ويصنعون ويأكلون نصف طعام، لكن الأهم أنهم يعرفون كيف يقتسمون الرغيف. الأحرار يبحثون عن الكرامة ويصرون على الحقوق، ويطورون قدراتهم وطاقاتهم لكي تبقى رؤوسهم مرفوعة، أما العبيد فترتعش أجسادهم كلما ظنوا أن حرية تتسلل إلى أوصالهم.

ما سمعته منك يا رئيس فلسطين عبارة عن كلام رخيص لا يطيب إلا للذين رخصت نفوسهم وقدموا أنفسهم خدما طائعين لأسياد شهواتهم. الكلام الذي صدر عنك هو عيب، وأنا كعربي فلسطيني أخجل من نفسي كلما لامست ذهني حقيقة أنك تتحدث باسمي.

* كاتب من فلسطين

في مآل الانتقال الديمقراطي بالمغرب

يحيى اليحياوي*

■ يتردد، منذ مدة، من بين ظهراني بعض الساسة والمثقفين المغاربة، خطاب (يشارف على الخطابة في العديد من ملامحه) مفاده أن المغرب الراهن بصدد انتقال ديمقراطي (أو انتقال إلى الديمقراطية)، من غير الوارد إطلاقا التراجع عنه أو الارتداد عن مسلسله.

تتمثل دفوعات هذا الخطاب في القول بأن انتقال الحكم إلى ملك شاب، حداثي النظرة، متفتح الأفق، يقدم العمل عن قرب على التوجيهات من بين جدراني مكتبه، واع بموقع المغرب وتحدياته، وفوق كل هذا وذاك، سليم الذمة من صراعات الماضي وتجاوزاته... كلها (يقول هؤلاء) تشفع له لينتقل بالبلاد إلى «حالة من الديمقراطية»، تسطر بموجبها بدقة الحقوق والواجبات، وتقتسم السلط في ظلها بإنصاف على نحو يضمن تداولية الحكم في جو من التراضي المكتوب.

وتتمثل أيضا (دفوعاتهم أعني) في القول بأنه ما دامت مقومات الدولة الأساس قد أقيمت أو شارفت على ذلك، وتمتّن قوامها على امتداد الخمسين سنة الماضية، فقد بات من الملح (يقول هؤلاء) تجاوز سكونيتها القائمة بجهة تحديد مسؤولية بعضها البعض، وضبط سلوكها بالنص والقانون ليغدو هذا الأخير مجال ولائها الأول عوض تركها مشتتة الولاءات، لا تأبه بالمراقبة أو المحاسبة أو تطاولها يد قضاء مرتهن.

ويدفعون، فضلا عن ذلك، بمسوغ مؤداه أن لا سبيل لتدارك إخفاقات الخمسين سنة الماضية والعجز البنيوي الذي ترتب عنها، إلا سبيل الاحتكام إلى الطريق الديمقراطي الأسلم سياسيا واجتماعيا، الأنجع اقتصاديا، والأضمن لمستقبل الأفراد والجماعات إن هم ارتضوا وتراضوا على العيش المشترك.

يستشهد أصحاب هذا الرأي بمجموعة «إشارات» بدت ولا تزال تبدو لهم فعلية، عميقة الدلالة، ومعبرة عن عزيمة الانتقال هاته وعلى ثبات الخطى المحيلة إليه:

+ الإشارة الأولى وتتمثل في «النية الواضحة» المعبر عنها من لدن رأس هرم السلطة لطي ملف الماضي نهائيا، عبر خلق هيئات أوكل إليها أمر معالجة «التجاوزات الكبرى»، عبر جبر الضرر ماديا أو من خلال رد الاعتبار المعنوي لضحايا سنوات الجمر تعرضوا على إثرها لدفن جماعي شنيع، ولم يحدد لمدفنهم الجماعي هذا مكان جغرافي يذكر.

+ أما الإشارة الثانية فتمثلت (في نظرهم) في التزام الملك شخصيا (في خطبه كما في استجواباته مع الصحافة الأجنبية) بأن الخيار الديمقراطي القائم على بناء المؤسسات وإقامة دولة الحق والقانون، خيار لا رجعة عنه تحت أي ظرف من الظروف ومهما تكن الإكراهات والتحديات.

ويستشهدون، لتزكية طرحهم، بمدى تزايد سعة الحريات وتوسع مجال المشاركة وتثمين أدوار الفاعلين المدنيين وأيضا دور المرأة، التي عرفها المغرب في ظل عهد الملك الجديد، ولم يكن يتمتع إلا بنسبة ضعيفة منها فيما سبق من عقود الاستقلال.

لمناهضي هذا الطرح (أعني للمشككين في جوهره ومداه) دفوعاتهم أيضا ومسوغاتهم الكبرى، للتدليل على أن الذي يجري لا يخرج كثيرا عن مجال الخطابة السياسية، التي غالبا ما تحتكم إلى المظهر ولا تسائل المسألة من زاوية المضمون والجوهر.

يقول هؤلاء: إنه لو سلمنا جدلا بأن وصول ملك جديد إلى سدة الحكم واكبته حقا حركية من نوع ما، للقطع نهائيا مع إرث الماضي الأسود وفسح في المجال «لمصالحة المغاربة مع تاريخهم القريب»، فإن ذلك لا يخرج عن سياق البحث عن الشرعنة وإعادة بناء المشروعية دونما (يقول هؤلاء) مس بطبيعة المنظومة ولا بآليات اشتغالها المركزية.

ويستدلون على ذلك بالقول بأن عملية إنصاف ضحايا الماضي مثلا (وهي العمل الأبرز للملك الجديد دون جدال) اقتصرت على التجاوزات الكبرى دون غيرها، ولم تذهب لمستوى مساءلة الشاوين خلفها (وبعضهم لا يزال حيا يرزق)، أو لدرجة جنوح الدولة للاعتذار في افق « مداواة القلوب نهائيا»، كما حصل بجنوب إفريقيا وبغيرها وإن باختلاف الدرجة والسياق.

بل إن بعضهم يذهب لحد القول بأن بقاء هياكل المنظومة واستمرارية طرق وآليات اشتغالها لا تقدم ضمانة للمستقبل، بل هي كفيلة لربما بإعادة إنتاج ما جرى بهذا الشكل أو ذاك.

ويراهنون فضلا عن كل ذلك قائلين: لو كانت ثمة حقيقة، إشارات دالة على النية في الانتقال الديمقراطي لبوشر ابتداء في إعادة صياغة الدستور بجهة توزيع السلط وفصلها بداخله، ولعمد من اليوم الأول إلى إعادة النظر في أساليب توزيع الثروة والسلطة بين الأفراد والجماعات، بين المناطق والجهات وبين الأجيال أيضا، والتي لربما كانت مصدر ما جرى.

كل هذا مجتمعا يشي في نظرهم، بأن السائد حقا (أو المراد له أن يسود مستقبلا دون شك كبير) إنما ترك المنظومة على طبيعتها وتركيبتها، لكن مع إدراج بعض الإصلاحات الشكلية التي تضمن للمنظومة إياها عناصر الاستقرار وتعطي الانطباع بأن ثمة شيئا ما يموج، على الأقل بالاحتكام إلى المظهر...بالإيحاء ربما.

بين الفريقين يخرج فريق ثالث، يعترف ضمنا بمحدودية ما تحقق في عهد ملك لم يدرك بعد عقده الأول على رأس السلطة، لكنه يلح (الفريق أقصد) بالمقابل على أن الادعاء باستحالة تغيير طبيعة المنظومة في المدى القصير والمتوسط، هو بالمحصلة مدعاة «تشاؤم مبالغ فيه»، على الأقل بالقياس إلى مبدأ التدرجية الذي غالبا ما يحكم عمليات كهاته معقدة، متشابكة المكونات ومستهلكة للزمن بامتياز.

إذا كنا هنا، لا نستطيع التقليل من شأن ما تحقق على مستوى فتح «ملفات الماضي الأسود»، ولا المزايدة على عمل لجنة اشتغلت وفق دفتر تحملات محدد، فإننا بالمقابل لا نستطيع الارتكان إلى ذلك (أي إلى نية هذا الفاعل السياسي أو ذاك) للقول حقا بأننا حقا بإزاء انتقال إلى الديمقراطية:

+ فالمقاربة على أساس من عبارة «انتقال» تبدو كما لو أن إدراك الديمقراطية هو من سلك مراحل متتالية، قد يعرف المرء بدايتها وقد لا يسعفه البحث والتحليل لمعرفة متى تنتهي، على الأقل متى يكتمل تأسيس مفاصلها الكبرى.

وعلى هذا الأساس، فنحن بالمغرب إنما بإزاء مسلسل لم تتحدد بصلبه بدقة نقطة الوصول، أي النقطة التي يمكننا الادعاء بأننا أضحينا بإدراكها نعيش في ظل نظام ديمقراطي حقيقي.

ليس الأمر هنا أمرا نظريا خالصا، بل هو طرح عملي بكل المقاييس إذا لم يكن من زاوية تحديد المدى الزمني الذي تتطلبه العملية، فبالتأكيد بجهة مساءلة ما يتم الاشتغال عليه الآن، بغاية ضمان تداول السلطة وبناء دولة الحق والقانون وسيادة المنطق المؤسساتي على ما سواه. وهي أمور لا تزال مبهمة وهلامية ومراو